

كان «الفرّاش» من خيرة ناس العمارة التي أسكنها منذ عشر سنين، في آخر أيامه كان يحدثني باستمرار عن سنوات الجمر التي قضاها مع الرفاق في الجهاد.. الجهاد من أصعب أيامي يا ولدي، فرصة نادرة قد لا تتحقق أبداً لجميع الناس.. هبة من السماء.. أنا واحد من المحظوظين، صدقني.. كان أثناء كلامه يؤكد لي ذلك الشعور الجميل الذي يصاحب كلامه.. كانت لذة صماء.. قد تكون كذلك لأننا نحسها ولا نعبر عنها بلسان صارخ، الخوف يملأ نفوسنا، والفرح أيضاً. تمازج غريب، الواحد منا حين يفيق تنبعث منه روح الشجاعة الغريبة، نتأسي أحياناً بالأحلام التي كانت ملاذاً غريباً تتجسد فيه الأحاسيس بشتى صنوفها: الضوء والظلام، الفرح والحزن، البكاء والضحك...

بقلم: مولود قيودم
الجزائر

بأنه يسبح ويطير في آن، لقد انزاح كل ما ينغص حياته إلى عتمة الإهمال، وعليه الآن أن ينظر إلى المستقبل بمنظار جديد.

كان عليه - بدءاً - تأنيث بيت يليق بهذه الفتاة الجميلة، أما المال فقد كفاه الرسول الكريم عباه عندما طلب منه أن يذهب إلى ثلاثة من أثرياء الصحابة ويأخذ من كل منهم مئتي درهم.

وفي اليوم التالي بادر بالذهاب إلى السوق يستعرض الأمتعة، يقارن بين هذه وتلك، وبينما هو يقلب ويختار إذا به يسمع صوت الداعي يدعو إلى الجهاد، ويحرض أبناء الإسلام على الخروج لإعلاء كلمة الحق.

وجمدت يدا الصحابي الفاضل.. ونسي كل ما في دنياه من زوجة مرتقبة، وعرس مرتجى وبيت صغير تظله بضع نخلات، وتفتشره أحلام لا توصف.

لم يتركز في بؤرة الوعي منه إلا شيء واحد: هو أن العقيدة تدعو إلى نصرتها، وعندما تدعو العقيدة فلا صوت غيرها يسمع، ولا دعوة غيرها تجاب، ولتذهب أعراض الدنيا إلى حيث ألفت..

والقى ما بيده، ورفع رأسه وروحه إلى السماء، قبلة الدعاء:

- والله لأجعلن هذه الدراهم فيما يحب الله ورسوله. وانطلق ملهوفاً يبحث عن العتاد والسلاح، وبدلاً من متاع العروس، اشترى فرساً وسيفاً ورمحاً، ولم ينس أيضاً شراء درع.

... في قلب المعركة كان الفارس، منتصباً فوق حصانه لا يريم، مخترقاً الغبار الذي تثيره السنايك - مشرعاً سيفاً من سيوف ذلك الزمن الجميل، البعيد القريب، بعقبه الروحي المقيم، ورجاله الأفذاذ الذين يساوي الواحد منهم ألفاً أو يزيد.

لم يشعر بتعب وذراعه تدور في اليمين والشمال تطعن وتطيح بأذن من ربه بعبدية الأحجار وخفافيش الليل وزواحف الظلمة.

وجاءت لحظة على الفارس الفريد لم يعد يشعر فيها بشيء.. لقد أمحت الشمس والخيول والفرسان، ولم يبق ثمة شيء إلا قدره، محتوم محتوم، يوشك أن يتم ويتحقق كلما مضى الوقت.

وانزلق الفارس مضجراً بدمائه العنبرية، وانقلب على ظهره كأنما يستريح من رحلة الحياة، عيناه معلقتان بالسماء.

وينقش غبار المعركة باندحار أعداء النور. ويامر النبي - صلى الله عليه وسلم - بسلاح سعد وفرسه وما كان له، ويقول وعيناه الكريمتان تدمعان: - انهبوا بها إلى أهل زوجته وقولوا: إن الله زوجة خيراً من فئاتكم.

فراش

الزمن أمام الذكريات. أصعب شيء في حياة الناس هو التنافر الغريب بين ما هو كالطيوب الجميلة التي نشمها ولا نراها.

الفراش علامة بارزة من ماضٍ تولى، قائم على البقاء بالصراع بين ما هو ذاهب وما هو آتٍ.. راقبت كل ذلك ولسانه يسرد الوقائع التي رفضت أن تغيب، فالحكايات تتفاجأ بازدهامها من الشدقين مع زبد أبيض يعلو الشفاه، كلها تريد الخروج من هذا القفص المكسو بجلد أسمر جاف.

الشباب تعطل هنا، وتاه بعيداً، تخلص من مسؤوليته ولم أدر أن «الفراش» قد قطع شوطاً كبيراً من حديثه، وانتهى به المطاف إلى كشف أسمائه عن ساقه، انظر ولدي! انتبهت إلى موضع يده.. هذه آثارها، قلت ما هي؟ قال زغردت كالرعد في ليلة شجية باكية، الماء انهمر بثقل لا نظير له، «الدوشمة» التي جمعنا ليلتها رفضت بقاءنا، ثارت بظلمتها ووحشتها علينا، كانت قبراً آلياً للزوال تسرب رغماً عنها الماء ووصل إلينا، هذه المرة لم يحسن الحفار صنيعته، اعتقدنا أن الماء سيكف عن التسرب، عبثاً انتظرنا، كان موقعها لا يسمح لنا بفتح ثقب تمكّن الماء من الانبجاس، كان عالياً يتجه نحو الأعلى، محتوى بين صخرتين، الإقرار على المكان يعود إلى الحفار، لكن غاب عنه مثل هذا الحدث... الماء تسرب وماذ علينا المكان «الفراش» التي استعنا بها على البرودة والرطوبة بدت كالعطشى الغارقين في الوحل، لم يكن في مقدورنا البقاء، الخارج زوابع ضالة، والداخل حمام بارد، كان لابد من قرار حكيم يقودنا إلى النجاة.

الرفاق لم يفشلوا أمام الجوع والعري والوحدة، ولكنهم الآن يعانون ويتأهون في صمت تتفسخ فيهم القدرة..

وفي نهاية المطاف قررنا الخروج، فجمعنا ما أمكن اتقاء للحوادث، خرج أولنا فثانينا ثم الذي يليه، كان العدد اثني عشر رجلاً بالتمام، فصيل صغير، مهمته المنوطة به الاتصال والمراقبة، اتخذنا من أحد الدروب طريقاً، قلنا إن العدو لن يغامر، فطالما تخير أماكن غيرها اتقاء للاشتباك لأنه يصعب عليه اختراقنا من هنا، مشينا فرسحاً أو يزيد نصارع الفندول والديس ونتمسك بالنتوءات البارزة للحجارة الناتئة على الحواف، وكان الرعد في عظمتة سبحانه الله الذي يسبح الرعد بحمده. كان الخوف من الرعد أكبر من العدو، وفي لحظة أنار البرق المكان فبدت لنا أشباح متناثرة على الجانبين، كانت أشبه بحجارة سود في صحراء شاسعة.

نظر بعضنا إلى بعض وقال: رأيت ما رأيت؟! توقفنا، لعل البرق يهدينا إلى السبيل، إننا حائدون عن سبيلنا، أه لقد اتجهنا جنوباً إذا.. وما أن انتبهنا إلى ذلك حتى زغردت رصاصة، واستقرت في ساقى، ودخلنا في اشتباك كان الكمين محكماً فعلاً، الألم يتلفع الجسد.. ماذا أقول يا ولدي، ليلتها أثبت الرفاق شجاعتهم، مات أولنا فثانينا فثالثنا فرباعنا فخامسنا، وظل الرصاص يلعلع، يسابق حبات المطر الكثيف، نبادلهم الطلقات ونترجع، وكنت بين اثنين منهم محمولاً، ولم أدر كيف وجدت نفسي في إحدى زوايا «دشمة أخرى».

انظر يا ولدي: ها أنا فراش أبدي، الحياة مرة واحدة أجل واحدة، أعطانا إياها الله، أنا أعرف أنكم تعيشون تدمراً لكن هل تنتحرون، الحياة مرة واحدة يجب أن تحياها حياً وصراعاً.. مد يده إلي كي أساعده على النهوض، وقال وهو يسعى إلى الوقوف سأترك المكان، طويلاً بقيت هنا، رأيت جميع الناس اليوم، رأيت فيهم تاريخاً كاملاً، ساعدني الآن كي أمشي. قلت أساعدك على المشي؟ قال: لا، خضتته وحدي بعد رحيل الرفاق، والآن سأكملة وحدي، أنت عليك فقط أن تقرأ في الذكريات بصمات أقدامنا. ومشى خطوات ثم كسر زاوية العمارة، واختفى.